

ظاهرة الالتزام الأدبي في شعر سليمان دواق

ديوان «سقوط قمم ومهازل أمم» أنموذجا

الباحث: يوسف باعمارة
طالب دكتوراه تخصص دراسات نقدية
كلية الآداب واللغات - جامعة غرداية

ملخص:

يعالج هذا المقال ظاهرة الالتزام الأدبي، وظهورها على الساحة الأدبية من الناحية التاريخية، ويهدف إلى توضيح هذه الظاهرة في شعر سليمان دواق⁽¹⁾ من خلال ديوانه «سقوط قمم ومهازل أمم» وجاءت هذه الدراسة إسقاطا على القصائد التي تحتويها المدونة، وتحمل في مجملها شحنات اجتماعية وتاريخية وسياسية تعكس أحداثا ووقائع عالجهما الشاعر بتفاعل وحيوية مع دينامية المجتمع وتغيراته، وما يعاينيه من آلام وما يتطلع إليه من أبعاد وآفاق بطريقة شعرية جمالية جمعت بين رصانة المبنى وقوة المعنى.

Le Résumé :

Le présent article traite le phénomène de l'engagement littérature, et de son apparition sur la scène littéraire de point de vue historique. Il vise à clarifier ce phénomène au sein de la poésie de SLIMANE DOUAK à travers son recueil «**chute de sommités et ridiculisation de nations**».

La présente étude intervient comme identification aux poèmes contenus au sein du recueil, elles renferment dans leurs ensembles des charges sociales, historiques et politiques, reflétant des événements et des faits vécus par le poète avec interaction et activisme vis-à-vis du dynamisme et des mutations de la société. Reflétant également les souffrances endurées, ainsi que les attentes et les espoirs envers des dimensions et des horizons poétiques et esthétiques mariant ainsi entre la solidité du verbe et la force du sens.

مدخل:

يرى بعض النقاد أن المبدع ليس منعزلاً عن مجتمعه؛ فهو مرتبط به ارتباطاً وثيقاً يتعلم منه، والمجتمع بدوره يأخذ منه؛ وهذه النظرة -طبعاً- ليست وليدة الصدفة؛ أو هي محض افتراءات ما أنزل الله بها من سلطان؛ وإنما هي نتاج تاريخي، وخراج فكري مما أنتجته بنات الأفكار والعقول الحسيفة من رؤى نقدية وتوجهات فكرية مرت بمخاض عسير حتى تصل إلى هذه الرؤية التي بمحتواها يكون الفن والإبداع نشاطاً اجتماعياً فعالياً غير منعزل تماماً عن الساحة التاريخية والسياسية والاجتماعية لذلك المجتمع؛ وهذا هو الأصل، وإلا فإن عدم تقيد الأدباء بهذه الفكرة، وعدم تتبع النقد لهذه القضية وتقصيها يفتح الأسئلة الكثيرة في حق الأدباء ودورهم في مجتمعاتهم: يا ترى ما دورهم؟ وهل ينعمون بما لا يسمعون؟ ويمكن لبعضهم أن يدرج الأدباء وخاصة الشعراء منهم ضمن قوله سبحانه وتعالى ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ

الْفَاوَنُ ۚ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۚ﴾ (٢٢٥).

ولعل أقرب صورة توضيحية لهذا القول هو حل جماعة «الشكلانيين الروس» في ثلاثينيات القرن الماضي؛ حيث لم تنشط إلا في الفترة الممتدة ما بين 1915م إلى 1930م، رغم أنها جاءت بمبادئ جديدة وحديثة وآراء نقدية قيّمة، مفادها الدراسة العلمية للأدب؛ أو لنقل علمنة الأدب كما يطو لهم في استعمال هذا المصطلح من خلال مبدأ المحايثة، وهو الاهتمام بالجانب الجمالي الشكلي الديكوري الذي يضيف جمالاً على الإنتاج الأدبي؛ لكن القطرة التي أفاضت الكأس هو قرار حل هذه الجماعة تحت غطاء سياسي من رئيس الاتحاد السوفييتي آنذاك «جوزيف ستالين» معللاً فعله هذا بأن الشكلانيين الروس لا يُقدِّمون شيئاً للبيت السوفييتي ولا يخدمون مبادئ الثورة البلشفية؛ إذ يولون للشكل أهمية قصوى على حساب المضمون، ويوغلون كثيراً في ذلك، وهم بذلك يفككون الإبداع إلى جزئيات مقطعة ولا يعيدون صياغته وتركيبه من جديد؛ هكذا إذن كانت نظرة ستالين للشكلانيين الروس من زاويته كما يراها هو؛ فلم يكن حل الجماعة فقط، بل أدى ذلك حتى إلى مطاردة العديد منهم في إقليم الاتحاد السوفييتي في ذلك الوقت الغابر؛ فنلاحظ أن هذه القضية النقدية قد أخذت بُعداً خطيراً وصل إلى

المطاردة والملاحقة؛ وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أهمية الأدب الاجتماعي المؤثر في الأمم، وتغييره للاتجاهات والأفكار والرؤى، ومبادلة التأثير والتأثر بين المبدع والمتلقي سلبا وإيجابا؛ وهكذا انتشر مفهوم الالتزام في العصر الحديث موازيا مع أفكار النظام الاشتراكي الذي يطلب من المبدع التقرب إلى قضايا الشعب، وأصبح الالتزام مطلبا حيويا في الأدب، بواسطته يتفاعل الأدباء مع قضايا مجتمعاتهم، ويقدمون مواقفهم تجاهه، وكل هذه الرؤى التي تم تفصيلها كانت تحت مسمى الواقعية، أو الأدب الواقعي الذي يعتبر انعكاسا للواقع الاجتماعي المعيش، وتقديم صورة للواقع ممزوجة بنفسية الأديب و قدراته على التصوير الفني⁽³⁾.

لم يكن الواقعيون لوحدهم من ينادي بهذا المبدأ؛ بل تبعهم في هذا: الوجوديون إلى درجة أن أحد الكتاب وجّه نقدا «لجون بول سارتر» زعيم الوجودية قائلا: «إذا كنت تريد أن تلتزم، فماذا يؤجل انضمامك إلى الحزب الشيوعي»⁽⁴⁾.

بيد أن فرقا بين الواقعيين و الوجوديين؛ حيث يرى الواقعيون أن الالتزام يشمل جميع مظاهر الحياة؛ إذ يرى كارل ماركس بوجوب أن يظهر العنصر الاقتصادي في الحركة الأدبية كون هذه الأخيرة تعبر عن الصادات و الواردات في المعاملات التجارية، وعن التطور الاقتصادي في حياة الإنسان، بينما يذهب الوجوديون مذهباً آخر في كون الالتزام يكون مع الأدب بالضرورة، ويرون عدم ضرورته مع سائر الفنون الأخرى كالرسم والنحت والموسيقى⁽⁵⁾.

تعريف الالتزام:

لغة: ورد في لسان العرب تعريف الالتزام من كلمة لزم الشيء يلزمه لزما ولزوما، ولازمه ملازمة ولزما، والتزامه، وألزمه إياه فالترمه، ورجل لزمة يلزم الشيء فلا يفارقه، والزام : الملازمة للشيء والدوام عليه ، والالتزام: الاعتقاد⁽⁶⁾.

اصطلاحا: هو المشاركة في قضايا الجماهير، والعمل على حل مشكلاتهم، وتطابق كلمة الالتزام المفهوم الأجنبي Engagement ومعناه التعهد والارتباط بالقضايا الجماهيرية، ويعني أيضا أن يتقيد الأدباء وأرباب

الفنون في أعمالهم الفنية بمبادئ خاصة و أفكار معينة يلتزمون بالتعبير عنها و الدعوة إليها، و يقرّبونها إلى عقول جماهير الناس، و يحبّبونها إلى قلوبهم⁽⁷⁾

وقد عرفه د. محمد غنيمي هلال بقوله: «يراد بالالتزام الشاعر وجوب مشاركته بالفكرة والشعور بالفن في القضايا الوطنية والإنسانية، وفيما يعانون من آلام، وما يبنون من آمال»⁽⁸⁾.

وبالجملة يمكن القول أن على الأديب التقرب من مجتمعه والإحاطة بما يكتنفه من إشكالات عويصة تستدعي حلولاً ناجحة عن طريق أبعاد و آفاق يرسمها في أدبه؛ على أن لا يكون ذلك إلزاماً و تقييداً لحريته في العملية الإبداعية، ومنعه من البوح عن الأغراض الذاتية التي يحس بالحاجة إلى التعبير عنها؛ لأن بعض النقاد جمعوا بين الالتزام والإلزام في بوتقة واحدة، ومصطلح واحد لا يختلف الأول منهما على الثاني، إذ يرون أن الالتزام في حد ذاته هو تقييد من حرية الأديب؛ ولذلك يدعو بعض النقاد إلى الحرية التي بدونها لا يمكن أن تعيش المجتمعات البشرية، و بانهدامها يصبح الإنسان أشبه بالحيوان بل لا فرق بينهما أصلاً، ولذلك مُثِّلَ الأدب كفرس جامح إن منع عن سننه قطع أرسانه واستلب عنانه، فشقى به سائسه و هلك معه فارسه، أو هو ماء سارب و سيل راعب عرم يغرق ما حوله إن ضيق على جوانبه، و عليه وجب تحديد الهدف من الالتزام؛ فإذا كان المقصد من الالتزام أن يفرض المجتمع على الأديب أفكاره و معتقداته حتى لا يحيد عنها في كتاباته فيكون كآلة تحركها أيديهم كيفما شاءوا، فخير على الأديب أن يختار له صناعة غير صناعة الأدب⁽⁹⁾.

ويشدد دعاة الالتزام إلى ضرورة وجوده في الأعمال الإبداعية الأدبية؛ فإذا رآوا الأديب لا يبيع بعض الصور الفنية التي لا تمت إلى مشكلات مجتمعه بسبب، كوصف عاصفة هوجاء أو شلال هادر أو نهير متجمد أو زهرة ذابلة أو تصوير غريزة جامحة أو تجربة ذاتية لا علاقة لها بمصير الإنسان حُكِمَ عليه بالتقصير رغم إجادته في الوصف و التصوير، وإذا رآوه شديد الاهتمام بالصور الفنية المتصلة بالحياة الوطنية و الاجتماعية و القومية و الإنسانية حُكِمَ عليه بالإجادة⁽¹⁰⁾، و موقفنا نحن - من خلال هذين الموقفين المتشدين لأرائهما هو الوسطية و الاعتدال و العقلانية و الليونة مع المصطلح

والمفهوم، فلا مشاححة في الألفاظ والمعاني؛ والأحرى هو ترك الأديب حراً في الإبداع يكتب بكل أريحية واطمئنان؛ حيث تساعده هذه المعطيات على معالجة الظواهر الاجتماعية التي يراها وثيقة بالمجتمع من دون إقحام ولا قيد ولا شرط حتى يكون المنتج الأدبي مخرجاً بالطبع لا بالتطبع والتكلف والتعقيد، وتبدو فيه الجمالية والسلاسة والعفوية، كما يتمكن القارئ من جهته - اكتشاف مواطن الجمال والعذوبة الفنيين؛ فضلاً عن تلمس آثار الذوق الأدبي والفني.

ظاهرة الالتزام الأدبي في ديوان «سقوط قمم ومهازل أمم»:

يتبين لنا من خلال عنوان الديوان أن الشاعر سليمان دواق له نظرة اجتماعية إلى المشاكل التي تعاني منها المجتمعات بشكل عام، وخاصة المجتمع العربي المسلم الذي عانى طويلاً من ويلات الاستعمار بمختلف أنواعه، ولا بد لهذه النتائج الوخيمة من أسباب جعلته يتردى إلى هذا الواقع الدنيء كالتخلف والجهل والفقر والأفات الاجتماعية؛ فضلاً عن تسلط الحكام وفساد الإدارة مما يجعل سيلاً متدفقاً على الأمة العربية الإسلامية تتجرع غصصه من كل المظاهر والأسباب الأنفة الذكر، ويأتي الأدب عن طريق الشعر ليعالج هذه المشاكل العالقة، ويقترح الحلول والعلاج، ويسعى إلى إحداث فاعلية مع المجتمع بمحاورته والنزول إلى مشاكله، ويشعره مرة أخرى أن الأدب غير منحصر في الأغراض القديمة كالمدح والغزل والثناء وما إلى ذلك؛ بل إنه يطمح أن يدخل جميع مناحي الحياة، ويصورها تصويراً دقيقاً عميقاً من زاوية نظر تختلف عن النظرة القاصرة للأدب التي تراه يخلق في الأبراج العاجية ويبتعد عن الواقع كما يراه المنشائمون، نعم نثبت هذا من خلال التنقيب والبحث في هذا الديوان الذي كان صاحبه ملتزماً بالقضايا التي عايشها، فعبّر عنها بكل صدق محاولاً إيجاد الحلول لها ما استطاع، وفي فلسفة الديوان نجد تقسيماً رباعياً لمحاورة الرئيسة مستهلاً إياها بتساؤلات تدعو إلى ضرورة التحضر ونبيذ التخلف والرفع من مستوى الوعي والرقى والتفكير الإيجابي، والابتعاد عن الفساد بكل أنواعه؛ فكان المحور الأول يصف الأسباب التي جعلت كثيراً من الشعوب العربية تثور على ملوكها ورؤسائها؛ حيث مَورس عليها الإقصاء، وعانت من الخذلان، وتجرعت مرارة الذل والاستضعاف والهوان، فعاشت الأمة العربية سنوات من الضياع والفوضى واليأس والقلق والتشاؤم، وجاءت قصائد الديوان

تصف هذا الواقع المرير، وتسعى إلى واقع أحسن وأفضل؛ وعالج المحور الثاني صورة انعكاسية لواقع العالم العربي على العموم، وقضية فلسطين على الخصوص، والتي أصبحت وصمة عار في جبين الأمة العربية التي عجزت عن إيجاد حل جذري لها، وإنقاذ الأمة الفلسطينية من ويلات المستعمر الصهيوني، وظلمه المنسجم مع تواطؤ العالم الكافر، وتتاول المحور الثالث واقع الوطن الجزائري الذي يعتبر جزءاً هاماً لا يتجزأ من الأمة العربية الإسلامية، وتمحور حول السلبات في جميع الأصعدة التي تتسبب في تدهور الأوضاع وترديها، وحاول الشاعر أن يذكر الحلو والإجراءات اللازمة لمعالجة الأوضاع المتأزمة وتداركها قبل فوات الأوان، وفي المحور الرابع والأخير تحدث عن الرياضة من الزاوية السلبية، وأثارها الوخيمة على العلاقات الإنسانية بين الأفراد والمجتمعات، ويتجلى ذلك في الشحناء والبغضاء والصراعات وتفريق الناس إلى أمم وقبائل وأحزاب متناحرة كل حزب بما لديهم فرحون.

فمما تحدث عنه في المحور الأول سقوط القيم العربية لأسباب عديدة وصفها لنا دواق في الأبيات التالية:

بَلَّغَ الظُّلْمُ أَوْجَهُ وَتَأَزَّمَ حَالُ شَعْبٍ غَدَا مُهِينًا مُحَطَّمٌ
سَامَهُ الْخَسْفَ وَالْهَوَانَ ظُلُومٌ وَتَوَلَّاهُ بِالْعَذَابِ الْمَعْظَمُ
سَلَبَ الْعَرْشَ وَاعْتَلَاهُ بُلُومٌ فِي غُرُورٍ بِلَا اخْتِسَابٍ لِمُنْدَمٍ
نَفَخَ الرُّعْبَ فِي الْقُلُوبِ بِحُكْمٍ مِنْ حَدِيدٍ وَمِنْ لَظَى كَجَهَنَّمَ (11)

من خلال هذه الأبيات يتبين لنا التزام الشاعر بقضايا الأمة العربية بشكل عام، ويذكر هنا بشكل خاص أسباب سقوط النظام التونسي التي تدور في فلك الظلم والأزمات الداخلية ومشاكل الشعب، وغياب الديمقراطية، والقبضة الحديدية وغيرها جعلت الشعب ينتفض على رئيسه، ويطرده خارجاً؛ لكن بالطبع أن هذه النتيجة لم تكن اعتباطاً؛ فقد كان وراء ذلك أسباب عديدة فصلها الشاعر في هذه الأبيات:

بَلَّغَ اللُّؤْمُ بِالشَّقِيِّ إِلَى أَنْ كَادَ لِلدِّينِ فِي عِدَاءٍ مَرَسَمٌ

فِي حِصَارٍ عَلَى الْحَبَابِ جَهَارًا وَبَصِدٍ عَنِ اللَّحَى يَا لَمَأْتُمْ
مَا اكْتَفَى بِالرُّمُوزِ لَكِنْ تَعَدَّى كُلَّ خَطٍ وَكَمْ أَبَاحَ الْمَحَرَّمِ
ضَايِقَ النَّاسِ فِي الْمَسَاجِدِ كُفْرًا أَيُّ جُرْمٍ أَشَدُّ هَؤُلَاءِ وَأَعْظَمُ؟ (12)

فالمساس بالحرية الدينية والمعتقدات، والمساس بالطابوهات التي يتمتع بها المواطنون في شخصياتهم الذاتية، والتدخل في شؤون المساجد ومضايقة الناس لأجلها؛ هي من أبرز الأسباب التي عجلت لسقوط هذه القمّة؛ لتبقى عبرة لمن اعتبر، وكما أسلفنا سابقا فإن ظاهرة الالتزام الأدبي لا نكتفي فقط بذكر الآلام والمشاكل والصعوبات؛ بقدر ما نحرص على إيراد الحلول الناجعة والإجراءات الكفيلة بحل تلك المشاكل العويصة، وهذا ما نلمسه في قول دواق:

إِنَّهَا عِبْرَةٌ لِكُلِّ زَعِيمٍ ظَنَّ يَوْمًا بِأَنَّهُ سَوْفَ يَسْلُمُ
وَنِدَائِي لِكُلِّ عَاهِلٍ وَطَنِ كُنْ رَحِيمًا بِمَنْ حَكَمْتَ لِتَرْحَمَ
وَاعْتَبِرْ بِأَلَّذِي جَرَى لِظُلُومٍ وَاجْعَلِ الْعَدْلَ فِي الْأَنَامِ مُحْكَمَ
قَبْلَ يَوْمِ الْجَزَاءِ نُنِيًّا وَأُخْرَى أَكَيْسُ النَّاسِ مَنْ وَعَى مَا تَقْدَمُ (13)

يقدم لنا الشاعر سليمان دواق القصد من التزامه بمعالجة مشاكل الأمة العربية وأسباب سقوط قممها وزعمائها، ويدعو إلى استلهاهم العبر من الحوادث التاريخية التي تمر بها الأوطان، ويدعو إلى اجتناب الظلم، والدعوة إلى العدل والرحمة والاعتبار باليوم الآخر؛ لتبقى العلاقة وطيدة بين الحكام ومحكوميه.

ويحذر دواق من فوضى السياسة، وصراع الكراسي التي تجعل الشعب يتخبط في صراع مع حاكمه، ويدعو هذا الأخير إلى توظيف عقله، وعدم الانجرار وراء السلطة بدون حق، فيقول له الشاعر ولأمثاله متسانلا:

أَيُّ مَسٍّ مِنَ الْجُنُونِ مُصِيبٍ عَقْلٌ غَرَّ يَرَى الْكَرَاسِي
مَطِيَّةً

لِحَيَاةٍ بَرِيقُهَا كَسْرَابٍ حِينَ يَلْقَاهَا لَمْ يَجِدْهَا مَنِيَّةً
 أَيُّ سِحْرٍ مُخَبِّأٍ فِي كَرَاسٍ يَجْعَلُ الْقَلْبَ رَاضِيًا بِالْأَذِيَّةِ
 أَيُّ خَمْرِ تُدِيرُ عَقْلَ أَنَاسٍ حِينَ يَعْلُونَ سُدَّةً سُلْطَوِيَّةً
 فَيَكُونُ الْغُرُورُ فِيهِمْ مَكِينًا وَيَصِيرُ الْجَفَاءُ فِيهِمْ
 سَجِيَّةً (14)

ويُسهب سليمان دواق الحديث عن الأزمة المصرية وسقوط حاكمها على يد شعبه، ويذكر الأسباب التي جعلته يلقي هذه النتيجة المأساوية، ويؤيدي العلاج المقترح في هذه الأزمة وهو التخلي بعقلانية وليونة أحسن من الفوضى والعنف، وهو مالا يحبذه الضمير ولا يرضاه العقل، فيقول:

إِنَّ مَنْ كَانَ لِلْيَهُودِ عَمِيلاً لَيْسَ بَدْعًا إِنْ اعْتَدَى
 بِشَهِيَّةٍ مُسْتَدَامًا عَلَى النَّفُوسِ
 الْأَبِيَّةِ لَأَوَّانٍ وَلْتَسْتَجِبْ لِلرَّعِيَّةِ
 عَنْ قَرِيبٍ نَهَايَةَ مَأْسُوِيَّةِ إِنْ أَبَيْتَ السَّمَاعَ لِلنُّصْحِ
 فَارْقُبْ وَلْتَكُنْ عِبْرَةً لِكُلِّ ظُلُومٍ
 قَدْ تَمَنَّى سِيَادَةَ أَبَدِيَّةِ إِنَّهُ اللَّهُ وَحْدَهُ سَوْفَ يَبْقَى
 مَالِكُ الْمَلِكِ مُلْكِيَّةً سَرْمَدِيَّةِ (15)

ومن القمم التي طالها الغضب والفوضى النظام الليبي، حيث تجاوز العقيد فترة حكمه، وحكم شعبه لمدة تزيد عن أربعين سنة، فكثر فيها القلاقل والمشاكل والنعرات الطائفية والحمية العصبية الجاهلية؛ فضلاً عن التدخل في شؤون الدول الأخرى، فهوت هذه القمّة سريعاً، بسبب ما تبنته في نظامها، ويظهر هذا المحتوى في طيات قصيدة الشاعر:

عجلة السباق

أَسْفِي عَلَى أَرْضِ الْيَمَنِ إِذْ طَالَهَا دَاءُ الْفِتَنِ
لَهْفِي عَلَيْهَا بَعْدَ أَنْ كَانَتْ جِنَاتًا مِنْ عَدَنِ
كَانَتْ مَحَلَّ سَعَادَةٍ وَيُؤْمِنُهَا شَهِدَ الزَّمَنِ
صَارَتْ جَحِيمًا لَا يُطَاقُ تَجَرَّعَتْ غَصَصَ
الشَّجَنِ (18)

ولا يترك الشاعر الحبلَ على الغارب، بل يسعى إلى اكتشاف الحلول الممكنة لتجنب التصادمات والنزاعات، فينصح الحكام بتدارك الأوضاع قبل فوات الأوان، والحذر كل الحذر من الانتفاضات الشعبية التي تكون سببا في البلائيا والرزايا لتلك الأمة، ويحثهم على الانتباه لهذا الوبال قائلا:

يَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ يَفِيقُ ذُوو الْعَبَاوَةِ
وَالْوَسَنِ مِنْ الْحَمَاقَةِ وَالرَّعَنِ
أَوْ يَتَرَكُوا حَرَمَ وَيَسْتَعِدُّوا لِلظُّعَنِ
الْعُرُوشِ يَجْتَاحُهُمْ لَا يَرْحَمَنْ
مِنْ قَبْلِ سَيْلِ عَارِمٍ مِنْ نَوْمِهَا لَا تَهْدَانِ
إِنَّ الشُّعُوبَ إِذَا صَحَتْ كُلَّ الْكِرَامَةِ دُونَ مَنْ
حَتَّى تَعِيدَ لِنَفْسِهَا تَخْشَى سُجُونَا أَوْ
وَتُطِيحَ بِالطَّاغُوتِ لَا رَدَنْ (19)

ويحذّر الشاعر سليمان دواق الشعوب المظلومة من الصراع الداخلي، ويدعوها أن تكون ذا وعي وبصيرة وتحذّر لما جرى، وما حدث لكثير من الدول العربية بسبب الاندفاع والحماس وراء أي ثورة قائمة دون تعقل وتبصر؛ فجرت الدماء المهرقة دون حق، وتصارع الأحياء وصاروا أعداء فيما بينهم:

يَا شُعُوبًا تَعَايِي جُورًا مِنْ نَوِيهَا فَلَا عَلَيْكَ مَلَامًا
وُظْلَمًا وَرَثُوا الْعَرْشَ فَاسْتَطَبُّوا
إِنْ تَتَوَرَّى وَتَعْصِي بِطَغَاةٍ مَقَامًا

ثَوْرَةُ الشَّعْبِ نِعْمَةٌ إِنَّ
رَعَاهَا
طَالَمَا عَاشَ فِي شَقَاءٍ
مُضَامًا
وَحَمَوَهَا مِنْ نَكْسَةٍ
تَغْرِيهَا
عُقْلَاءَ وَجَنَّبُوهَا الْخِصَامَا

ويدعو الشاعر سليمان دواق في شعره إلى الاستفاقة من الركود و التخلّف والذل، واتباع دين الله الذي يدعو إلى العزة، وعدم الاستكانة؛ وهي الحلول للإشكالات العالقة التي أسهنا الحديث عنها:

إِلَى مَتَى نَحْنُ فِي الْأَعْدَاءِ صِيْدُهُمْ؟
إِلَى مَتَى لَا تَرَى بِالْعِزِّ رَايَتَنَا
يُصِيبُ أَمْتَنَا عَجْزٌ وَتَهْدِيدُ
خَفَاقَةٌ وَالْأَمُّ الدُّلُّ مَعْفُودُ
عَلَى النَّوَاصِي وَدَيْنُ اللَّهِ يَأْمُرُنَا
بِعِزَّةٍ وَهُوَ رَبُّ الْعِزِّ مَعْبُودُ
يَا لَيْتَ شِعْرِي تَعِي التَّارِيخُ أَمْتَنَا
فَتَسْتَجِيبَ لِدَرْسٍ فِيهِ تَرْشِيدُ
فَإِنْ يَكُنْ غَيْرَ ذَا كَبَرٍ عَلَيْنَا إِنَّ
فَالْمَوْتُ فِي حَقِّهَا لَا شَكَّ مَحْمُودُ⁽²¹⁾

وفي المحور الثاني من الديوان نجد حضورا قويا للقضية الفلسطينية كونها بقيت وصمة عار في جبين الأمة العربية الإسلامية ولم تجد لها حلا ناجحا ينقذ أبناءها من برائث الصهاينة والمفسدين الذين عاثوا في أرض فلسطين فسادا وإفسادا وتقتيلا وتكتيلا وتعذيبا بالمستضعفين؛ فنجد الشاعر في الأبيات الآتية يحض العزائم ويقوّي الهمم لأجل الوصول إلى تحرير القدس، فيقول:

أَلَا أَيُّهَا الْعَرَبُ وَالْمُسْلِمُونَ
تَرَكْتُمْ مَعَالِيَكُمْ كَالنَّسُورِ
إِلَآمَ التَّرْدِي إِلَى الْمُنَحَذَرِ
وَعِشْتُمْ بُغَاثًا خِلَالَ الْخُفْرِ
فَضَاعَتْ فِلَسْطِينُ شَرِّ
الضِّيَا
إِلَى غَيْرِكُمْ فَاغْتَلَى وَاحْتَقَرُ
فَصِرْتُمْ عِبِيدًا عَدِيمِي
مَدَدْتُمْ أَيْدِيَكُمْ عَالَةً
وَسَخَرْتُمْ خِدْمَةَ لِهَوَاهُ

النظر (22)

ومما يدخل في القضية الفلسطينية مشكلة غزة الجريحة التي طالتها
العدوان الإسرائيلي الصهيوني الغاشم مرات عديدة ظلما وعدوانا، وما
أحدث فيه من مجازر يندى لها الجبين، فضلا عن ما لحقها من خراب
لل عمران وفساد لبناها التحتية، يصف لنا الشاعر هذه الأحوال بقوله:

يَا لِهَوْلٍ (غزة) يَا مَنْ أَمْرُهَا يَا مَنْ تَوَالَتْ بِهَا الْأَرْزَاءُ وَالْكَرْبُ
عَجَبٌ

لَمْ يَكْتَفُوا بِحِصَارٍ شَلَّ سَاحَتَهَا فَاْمَطَرُوهَا صَوَارِيخًا وَكَمْ دَابُّوا
حَتَّى غَدَتْ بِلْدَةُ الْإِتْقَاضِ يَسْكُنُهَا تَحْتَ الرُّكَامِ أَنَاسٌ إِنَّهُ الْعَجَبُ
سَمَاوُهَا تَصْطَلِي نَارًا مُلْهَبَةً وَأَرْضُهَا بِشَدِيدِ الْقَصْفِ تَضْطَرِبُ
وَأَهْلُهَا بَيْنَ مَقْتُولٍ قَضَى وَبَيْنَ جَرَحَى وَصَرَغَى طَالَهُمْ عَطْبُ
نَحْبًا

وَلَمْ يَكُنْ يَسَعُ الْبَاقِينَ حِينُنِيذٍ إِلَّا الدَّعَاءُ وَالْإِلَّا الذَّعْرُ وَالنَّحْبُ
لَهْفِي عَلَى صِيبَةٍ يَغْلُو لَهْفِي عَلَى نِسْوَةٍ وَالْمَوْتُ يُرْتَقَبُ
صَرَاحُهُمْ

فِي كُلِّ رَمْشَةٍ عَيْنٍ رُبَّمَا انْفَجَرَتْ عَلَيْهِمْ عُبُودَةٌ أَوْ طَالَهُمْ لَهَبٌ (23)

ويحمل سليمان دواق المسؤولية التامة للعرب والمسلمين بسبب سكوتهم
التام، فضلا عن تواطؤ البعض منهم مع الغرب لمصالح سياسية منفعية،
ويرى الشاعر أن الغرب هو أهل لهذه المشاكل، فتاريخه مليء بالتدخل في
البلاد العربية الإسلامية عن طريق الاستعمار بمختلف أنواعه وأجناسه
وأشكاله، ولا يبقى الإشكال محصورا فيه؛ بل الإشكال محصور في من قبله
في بلاده، وجعل نفسه عرضة لقابلية الاستعمار، يقول سليمان دواق:

لَا لُومَ لِلْغَرْبِ إِنْ أَبْدَوْا سَكُوتَهُمْ عَنِ الْجَرِيمَةِ أَوْسُرُوا وَمَا
غَضِبُوا

فَلَيْسَ تَرْجَى مِنْ الْأَعْدَاءِ وَهُمْ عِيُونَ عَلَى الْإِسْلَامِ بَلْ
نُصْرَتُهُمْ

وَإِنَّمَا الْعَيْبُ فِي قَوْمٍ نَوِي نَسَبٍ وَمَا اسْتَفْرَهُمْ دِينٌ وَلَا نَسَبٌ
لَعَلَّ أَكْبَرَ عَيْبٍ كَوْنُهُمْ عَرَبًا أَوْ مُسْلِمِينَ وَلَكِنْ عَنْ هُدًى
نَكَبُوا

عَجِبْتُ مِنْ مَعْشَرٍ فِي عِزِّ نَكَبَتِهِمْ يُسَالِمُونَ عَدُوًّا بَيْنَهُمْ سَبَبُ
لِيَرْضَى الْخَصَمَ خَوْفًا مِنْ إِذَاتِهِ فَهَلْ يَقُولُ بِهَذَا الْعَقْلُ وَالْأَدَبُ؟ (24)

ويبقى الأمل قائما والتفاؤل حاصلًا طالما أن هناك تعلقًا بالله ورجاء به، لإنقاذ غرة وانتصارها، وما ذلك على الله بعزيز، ولا على همم الطامحين ببعيد، وفي هذا الإطار يقول دواق:

لَعَلَّ رَبِّي غَدًا يَأْتِي بِمُعْجَزَةٍ مِنْ الْبَيْنِ فَتَعْلُوا بِأَسْمِهِمْ رُتَبُ
وَيَسْتَعِيدُ حِمَى الْإِسْلَامِ حُرْمَتَهُ وَيُسْتَرِدُّ لِعَرْبٍ مَا كَانَ يَنْتَهَبُ
وَتَسْتَعِيدُ شِفَاهُ الْأَهْلِ بِسَمْتِهَا فِي غَزَا وَيَعُودُ الْيَمْنُ
وَالطَّرَبُ (25)

ولعله يأتي يوم يزول فيه الصهاينة المغتصبون للأرض الفلسطينية، ولا يتحقق هذا الغرض إلا بوحدة الصف ولَمَّ الشتات، وتبني الحزم والعزم في القضايا المصيرية مثل هذه القضية، يقول دواق:

لَيْتَ شِعْرِي يَفِيقُ أَهْلَكَ يَوْمًا مِنْ سُبَاتٍ أَمْ لِلْمَنَامِ بَقِيَّةُ
لَيْتَ شِعْرِي يَغَارُ أَهْلَكَ يَوْمًا فِيْهِبُوا فِي غَضَبَةٍ مُضْرِيَّةُ
وَيَزِيلُوا مِنَ الْوُجُودِ كِيَانًا أَجْنَبِيًّا إِنْ أَلَاةَ سَرْمَدِيَّةُ
لَيْتَ شِعْرِي يُعِيدُ أَهْلَكَ يَوْمًا وَحْدَةَ الصَّفِّ لِلشَّعْبِ الشَّقِيَّةُ
لَيْتَ شِعْرِي يَسُودُ أَهْلَكَ قَوْمٌ صَادِقُوا الْعِزْمَ فِي اخْتِصَانِ
الرَّعِيَّةِ (26)

ويدعو الشاعر إلى تغيير واقعنا الذي أصابه الفشل والذل والهوان، فيدعو إلى تجسيد النصيحة، وقول الحق في جميع الأماكن والأصعدة، والدعوة إلى وحدة الصف، ليتم بهذا رفع راية الإسلام وتقوية عزائمه، وتبليغ رسالته:

يَا لَيْتَ شِعْرِي يَهْبُ الْكُلُّ قَاطِبَةً لِنُصْرَةِ الْحَقِّ فِي نُصْحٍ بِمِلِّي فَمِ
فِي الْبَيْتِ فِي الْقَسَمِ فِي عَرْضِ يَقِي وَفِي الْمَكَاتِبِ وَالتَّكَلُّفِ وَالْقَمَمِ
الطَّرِ

بِذَاكَ يَنْتَصِرُ الْإِسْلَامُ فِي تَشْتَدُّ شَوْكَتُهُ حَقًّا عَلَى الطُّغَمِ (27)
نَظْرِي

بَغَيْرِ ذَا لَا نُمَتِّي النَّفْسَ مِنْ السَّمَاءِ وَإِنْ رُمْنَا فَمِنْ حُلْمِ

مُعْجَزَة

لَعَلَّ أَوَّلَ أَمْرٍ وَاجِبٍ عَجَلٍ يَدْعُو إِلَى الصِّدْقِ وَالْإِخْلَاصِ فِي الدِّمَمِ
لَمْ الشَّتَاتِ الَّذِي مَا أَنْفَكَ يُضْعِفُنَا بَلْ ظَلَّ يَسْحَقُنَا بِالْفِعْلِ كَالرِّمَمِ (28)

ويأخذ الواقع الوطني الجزائري حيّزا غير قليل في المحور الثالث، فيصف الواقع الجزائري بين الأمس واليوم، وما هو كائن منه، وما ينبغي أن يكون، ويفرد لواقع التعليم مكانا كبيرا وعظيما بمهازله وكوارثه، ويستشرف له حولا وأفاقا وأبعادا -وهي عين ما ترمي إليه قضية الالتزام الأدبي من ذكر للإشكالات وطرح الحلول الممكنة لها- كما سجّل دواق في محوره -هذا- حضورا قويا للموضوعات السياسية التي تتعلق بالفساد الإداري والمالي، فوصفها وصفا دقيقا مبينا أهم الهفوات، ومقترحا أبرز الحلول، لتخطي هذه المراحل اليائسة، وإحقاق الجزائر بالركب المتحضر، وهو ما يأمله الشاعر في نهاية كل قصيدة حسبما وجدناه بعد القراءة والتمحيص.

ويغوص دواق في وطنه، فيصور إيجابياته وسلبياته على المستوى السياسي، ويحاول تصحيح الأخطاء والهبوات، ويسعى إلى معالجتها، وتدارك أوضاعها من خلال المقارنة بين جهاد الأمس الذي كان ضد المستعمرين الفرنسيين، وبين جهاد اليوم الذي هو ضد الفساد السياسي؛ فيقول مخاطبا أرواح المجاهدين:

نِصَالُكَ يَا مُجَاهِدُ مُسْتَمِرٌّ وَحَاجَتُنَا إِلَيْهِ لَفِي أَزْدِيَادٍ
فَلَا تَخْلُدْ إِلَى الْمَاضِي قَنُوعًا بِمَا قَدَمْتَ مِنْ بِيضِ الْأَيْدِي
بِلَادُكَ تَرْتَجِي مِنْكَ اجْتِهَادًا لِانْقَادِ الْفَضِيلَةِ مِنْ كَسَادِ
فَإِنْ تَكُنِ الْوَفَى لَهَا بِحَقٍّ فَأُصْلِحْ مَا تَرَاهُ مِنْ
الْفَسَادِ (29)

ثم يخاطب الشاعر المجاهد بتغيّر الوضع الجزائري بين الأمس الماضي والحاضر اليوم؛ فقد كان الماضي عزيزا تعب فيه المجاهدون كثيرا، وحققوا انتصارات ضخمة شهد لها العالم في ثورة الفاتح من نوفمبر وعُرف بواسطتها الشعب الجزائري ورُفعت مكانته أعلى عليين، وكُنِيَ بشعب المليون ونصف المليون شهيد، فعُرفت تلك الفترة بفترة تحرير البلاد

من المستعمرين الفرنسيين؛ بينما اليوم لم يبق استعمار ولا عدو دخيل نحاربه؛ إنما بقي محاربة الفساد الداخلي، ووجوب الدعوة إلى الوحدة والالتئام والتعاون والتواد من أجل رفع راية البلاد، يقول دواق:

يَلَاذِكْ يَا مُجَاهِدُ بَعْدَ دَهْرٍ
مِنَ التَّحْرِيرِ تَجْتُمُ فِي
الْوَهَادِ
وَأَفْتَهَا وَمِحْتَتَهَا خِلَافٌ
وَقَفَّرَ فِي الْمَحَبَّةِ وَالْوَدَادِ
سَبَاقٌ لِلْمَصَالِحِ كَمْ دَهَاها
وَبِيعٌ لِلْكَرَامَةِ بِالْمَرَادِ (30)

ومن القضايا التي شكلت حضوراً قوياً في الواقع الوطني الجزائري ذكرى الاحتفاء بالفتح من نوفمبر، ويصور ما يقع فيه من مظاهر الاحتفال واللهو؛ حيث يتخذها البعض ملاذاً لذلك، ونزوة لقضاء المأرب الدنيئة؛ بينما الأصل هو استلهم العبر من هذه الحادثة العظيمة، وعدم اتخاذها مناسبة للاحتفاء دون عبر، يقول دواق:

نُوفَمْبَرُ قَدْ مَضَتْ خَمْسُونَ عَامًا
أَلْفَنَا أَنْ نَقِيمَ لَكَ احْتِفَالًا
وَنَنْفِقَ فِي الْمَظَاهِرِ كُلِّ غَالٍ
يَضِيقُ فُضَاؤُنَا بِمُفَرِّقَاتٍ
وَتَرْدِحِمِ الشَّوَارِعُ دُونَ وَعِي
وَكَمْ نَلْهُو، وَيَحْمِلُنَا انْتِشَاءً
فَتَلِكْ حَيَاتُنَا فِي يَوْمٍ عِيدٍ
عَلَى ذِكْرَاكَ مِنْ يَوْمِ التَّنَادِ
وَنَمْلَأُ بِالْحُسُودِ لَكَ النَّوَادِي
بِدُونِ تَدَبُّرٍ وَبِلَا رَشَادٍ
وَيَمْلَأُ جَوْنَا صَحْبُ الشَّوَادِي
بِمَوْجِ الْمَرْكَبَاتِ وَفِي عِنَادٍ
عَلَى نَبْذِ الْمَكَارِمِ وَالْمَبَادِي
بِرِيءٍ مِنْ قَذَى هَذَا الْفَسَادِ (31)

غير أن بصيص الأمل ما زال قائماً عند دواق؛ إذ يرجو التقاؤل لغد مشرق إذا فُهِمَت رسالة الذكرى، وتأمّلت النفوس معاني نوفمبر الحقيقية؛ هنالك يتغير الواقع المرير إلى واقع أفضل؛ بفضل الوحدة والتلاحم بين أبناء الوطن الواحد؛ بصمودهم أمام مؤامرات أعدائهم، يقول دواق:

نُوفَمْبَرُ إِنْ أَتَيْتَ غَدًا فَمَرَحَى
مِنَ الْحُبِّ الْأَصِيلِ وَمِنْ وَدَادٍ
لِيُصْبِحَ وَطَنُنَا أَهْلًا لِعَزٍّ
نُوفَمْبَرُ مَا تَزَالُ لَنَا مَنَارًا
وَلَكِنْ لَا نُرِيدُكَ دُونَ زَادٍ
يَتِمُّ بِفَضْلِهِ ضَمُّ الْأَيَادِي
يَرُدُّ بِوَحْدَةٍ كَيْدَ الْأَعَادِي
وَمُلْهِمَ نَشْنِنَا سُبُلَ الْجِهَادِ

لَقَدْ تَرَكَ الْعَدُوُّ بُدُورَ شَرِّ
عَلَيْنَا أَنْ نَبِيدَ لَهَا جُذُورًا
وَعِظَاها بِسَمِّ فِي سَمَادٍ
مَخَافَةَ أَنْ تَصِيرَ إِلَى امْتِدَادٍ
وَيَحْتَلَّ الصَّدَارَةَ فِي النِّجَادِ⁽³²⁾

ومن الإشكالات التي عانى منها الوطن الجزائري الإضرابات والانتفاضات التي تكون لأجل غلاء المعيشة، فيخرج الشعب إلى الشوارع مطالباً بحقوقه؛ لكن يجب أن نفهم أن المشكل ليس في الإضرابات والانتفاضات بعينها ولذاتها، وإنما لآثارها السلبية الوخيمة التي تتجلى في التعدي على الممتلكات العمومية والخاصة، وإتلافها وحرقتها، إذ تعتبر هذه الطريقة غير حضارية منافية للقيم الدينية والأخلاقية، يقول دواق عن هؤلاء المفسدين:

اتَّقُوا اللَّهَ يَا هُوَاةَ الشُّرُورِ
اتَّقُوا اللَّهَ فِي بِلَادٍ كَفَاها
عَاشِقِي الضَّرِّ وَالرَّدَى وَالتُّبُورِ
مَا تَلَقَّيْتُمْ مِنْ عِدَاءٍ وَجُورِ
اتَّقُوا اللَّهَ فِي أَهَالٍ لَدَيْكُمْ
كَيْفَ تَرْمُونَ أَهْلَكُمْ بِالشُّرُورِ
عَجَبِي مِنْكُمْ خَرَجْتُمْ سُكَارَى
دُونَ وَغِيٍّ وَدُونَ أَيِّ شُعُورِ
تَسْعُونَ الْبِلَادَ حَرْقًا وَنَهَبًا
فَاقْدِي الرُّشْدَ وَالنُّهَى وَالضَّمِيرِ
أَيُّ مَسٍّ أَصَابَكُمْ مِنْ جُنُونِ
فَاسْتَبَحْتُمْ مُحَرَّمًا بِسُرُورِ؟!
أَيُّ جَدْوَى لِمَا فَعَلْتُمْ؟ لَعْمَرِي
إِنَّهُ مُنْتَهَى الْعَبَاءِ الْكَبِيرِ!
قَدْ خَرَجْتُمْ مُطَالِبِينَ حُقُوقًا
بِاعْتِدَاءٍ مُبَالِغٍ مُسْتَطِيرِ
فَهَلِ الْحَقُّ يُسْتَرَدُّ بِحَرْقٍ
وَاخْتِلَاسٍ وَصَوْلَةٍ التَّذْمِيرِ؟⁽³³⁾

ثم لا يكتفي دواق بوصف المشاكل ورصفها في أبيات شعرية، بقدر ما يبحث عن الحلول الممكنة؛ فيخاطب أولي الحل والعقد الذين في أيديهم سلطة التعبير فيقول لهم:

يَا رُعَاةَ الْبِلَادِ هَلْ أَرْحِمْتُمْ
وَجَبَرْتُمْ رَعِيَّةً مِنْ
كُسُورِ

وَهِيَ تَرْجُو طِبَابَةً مِنْ خَبِيرٍ	إِنَّهَا تَشْتَكِي السَّقَامَ جَهَارًا
مَنْ لَهَا مُنْقَذٌ وَخَيْرٌ مُجِيرٌ؟	إِنَّهَا فِي الْحَضِيضِ تَرْجُو أَنْتِشَالًا
إِنْ رَجَعْتُمْ إِلَى الْإِلَهِ النَّصِيرِ	لَا أَرَى غَيْرَكُمْ سَرَاةَ بِلَادِي
وَنَهَجْتُمْ طَرِيقَ عَدْلٍ أَثِيرِ	وَاهْتَدَيْتُمْ بِهِدْيِهِ بِافْتِنَاعِ
أَوْ أَبَيْتُمْ فَأَبْشِرُوا بِالنَّذِيرِ	إِنْ فَعَلْتُمْ جَزَاكُمُ اللَّهُ خَيْرًا
وَاتَّقَى الْهَوْلَ قَبْلَ يَوْمِ عَسِيرِ	أَعْقَلُ النَّاسِ مَنْ وَعَى نُصْحَ هَادٍ
بُخْبَايَا النُّفُوسِ رَبِّ قَدِيرِ ⁽³⁴⁾	يَوْمَ عَدْلٍ أَمَامَ رَبِّ عَلِيمِ

ويأخذ موضوع التعليم حيزاً مقبولا في المدونة، ويسقط فيه الشاعر سليمان دواق الضوء الكاشف على استفحال الغش في الامتحانات الرسمية، وغياب المصداقية والنزاهة من الشهادات المدرسية، متحدثاً عما يحدث في امتحان شهادة البكالوريا كنموذج لتلك الشهادات؛ ومقارناً بين امتحانات الأمس النظيف و امتحانات اليوم المتعفن فيقول:

يَأْتِيهِ أَبْنَاؤُنَا فِي مُنْتَهَى الْأَدَبِ	مَنْ قَبْلُ كَانَ امْتِحَانُ النَّشْءِ
وَكُلُّهُمْ فِي صَفَاءِ الطَّبَعِ كَالذَّهَبِ	وَحَوْلَهُمْ أُمْنَاءُ مِنْ أَسَاتِذَةٍ
سِلَاحُهَا الْغِشُّ مَكْشُوفًا بِلَا حُجُبِ	وَالْيَوْمَ صَارَ امْتِحَانُ النَّشْءِ
تَحَجَّبَتْ لِتَوَارِي سَيِّءِ الْأَرَبِ ⁽³⁵⁾	وَرُبَّ مُخْجَبَةٍ مِنْ قَبْلُ سَافِرَةٍ
أَتَتْ بِهِ لِعَتِمَادِ النَّقْلِ مِنْ كُتُبِ	يُخْفِي الْحِجَابُ لَهَا مَا كَانَ مِنْ
	وَرَقِ

فَإِنْ تَعَذَّرَ غِشٌّ فِي الْمَلَأَ عَلَنًا فَإِنَّ بَيْتَ الْخَلَا حَلَّ لِمُرْتَقَبٍ (36)

ولا يكتفي بوصف الظاهرة الكارثية التي أصبحت اليوم حديث الخاص والعام، بل يحاول أن يقترح لها العلاج المناسب، وذلك بصفاء الضمير تجاه بلادنا، ونقاء السيرة وصفاء السريرة في خدمة وطننا؛ حتى نرقى بالجزائر إلى مصاف الدول المتقدمة علميا وحضاريا، يقول دواق:

وَلَا سَبِيلَ إِلَى التَّغْيِيرِ مَا فَتِنْتُ سِيَّاسَةَ الْوُطْنِ لَا تُقْصِي نَوِي
الْجَرَبِ

يَا لَيْتَ شِعْرِي مَتَى تَصْحُو فَتُطْلَبَ الْعِلْمُ فِي جِدِّ وَفِي رَغْبِ
ضَمَائِرُنَا

كَيْمَا نَوَاقِبَ رُكْبَ الْغَيْرِ فِي زَمَنِ غَعَتْ مَعَارِفُهُ تَعْلُو عَلَى السُّحْبِ (37)

وما زالت نظرة الوطن الجزائري إلى التعليم قاصرة، ويظهر هذا من خلال غياب الجدية في البرامج والمناهج؛ بسبب التجارب المتكررة بين السنوات المتقاربة، وعدم الالتزام بمنهج مدروس واحد، فضلا عن تردي المنظومة القيمية، وغياب الأخلاق لدى كثير من الناشئة، يصف دواق هذه القضايا بقوله:

إِذَا نَظَرْنَا إِلَى التَّعْلِيمِ يُخْجِلُنَا مَا يَغْتَرِيهِ مِنَ الْفَوْضَى وَيُلْقَاهُ

تَجَارِبُ عِدَّةٍ مَرَّتْ يَنْوُءُ بِهَا لَمْ يُكْتَشَفْ بَعْدُ نَهْجًا جَلَّ مَرْمَاهُ

فَلَا غَرَابَةَ إِنْ كَانَتْ مَدَارِسُنَا تَتْنُ مِنْ وَطْأَةِ التَّجْرِبِ تَأْبَاهُ

فَلَا تَجُودُ بِغَيْرِ الْغَضِّ مِنْ ثَمَرِ لَا تُجْدِي نَفْعًا لِنَشْءٍ فَاعْرِ فَاهُ

وَلَمْ يُجَدِّ فِي رَفِيعِ الْعِلْمِ بُغْيَتَهُ وَإِنَّمَا أُعْطِيَ الْمُسْكِينُ أَدْنَاهُ

فَجَاءَ نَشْنًا هَزِيلًا فِي مَعَارِفِهِ وَلَيْتَهُ طَابَ خُلُقًا فِي سَجَايَاهُ (38)

فهو يرى أن الأمة التي تكون كفاءة إذا كانت تراهن على العقول وتستثمر في الرجال الفحول، وتحافظ على المبادئ التربوية ومكارم الأخلاق في نفوس أبنائها كما قد سبق ذكره.

وننتقل إلى المحور الرابع والأخير من هذا الديوان الذي يصور جانباً سلبياً للرياضة، وخاصة كرة القدم؛ لما لها من شعبية كبيرة؛ وبما أنه في المحور السابق قد أفرد له موضوعاً قتيماً عن التعليم وما ينبغي أن يكون ربطه بموضوع الرياضة، وإهمال بعض الناس لواجباتهم المتنوعة، ومنها واجباتهم نحو التعليم والدراسة، يقول دواق:

عَجِبْتُ مِنْ كَرَةِ تَسْيِي هَوَايَتِهَا فَرُوضَ دِينَ وَعِرْفَانَ وَبَلْ أَدَبِ
إِذَا أُدْبِعَتْ مُبَارَاةٌ فَمَا عَجَبٌ أَنْ يَخْلُوَ الْمَسْجِدُ الْمَعْهُودُ بِالْقَرَبِ
وَلَا غَضَاةٌ فِي هَجَرٍ لِمَدْرَسَةٍ أَوْ تَرِكَ شُغْلٍ لِمَلْءِ الْجَوِّ بِالصَّخَبِ⁽³⁹⁾

ونلاحظ أن أغلب الأجواء الكروية تكون مشحونة بالصراعات والنزاعات، وقد تصل مداها إلى ما لا تحمد عقابها؛ فضلاً عن تخريب المنشآت العمومية والخاصة، وخاصة في حالة الخسارة، فيكون انتقاماً على مقدرات الوطن، يصف لنا الشاعر دواق هذه الأجواء فيقول:

لَا شَكَّ أَسْوَأَ مَا فِي الْأَمْرِ مُنْطَلَقٌ عَبْرَ الشَّوَارِعِ كَالْإِعْصَارِ فِي الْغَضَبِ
حَرْقٌ وَنَهَبٌ وَإِتْلَافٌ لِمَصْلَحَةٍ مِنْ الْمَصَالِحِ عُدْوَانًا بِلَا سَبَبِ
نَاهِيكَ عَمَّا يُصِيبُ الطَّرْقَ مِنْ خَطَرٍ حَوَادِثٍ تَحْصُدُ الْأَرْوَاحَ أَوْ عَطَبِ
وَلَا تَسَلْ عَنْ لَيْالٍ جِدَّ صَاحِبَةٍ عَلَى حِسَابِ مَرِيضٍ أَوْ رُقَادٍ صَبِي
يَا لِلرِّيَاضَةِ قَدْ صَارَتْ مَجَالٌ أَدَى مِنْ كُلِّ صِنْفٍ فَإِنْ تَعَجَّبْ فَذَا عَجَبِي
إِنِّي أَنْزَهُ شِعْرِي عَنْ بَيَانِ قَذَى قَدْ أَفْرَزْتَهُ هَوَاةَ الشَّرِّ فِي كَلْبِ
أَقْوَالٍ سُوءٍ وَأَفْعَالٍ مُنَافِيَةٍ لِكُلِّ خَلْقٍ وَكَمْ فِي الْجَهْلِ مِنْ كَرْبِ⁽⁴⁰⁾

ويصف لنا الشاعر دواق علاج هذه الأعراض الخطيرة في المجتمع الجزائري، فيدعو إلى رفع الهمة العالية والتفكير الحصيف، والنظر إلى معالي الأمور وأشرافها، وتجنب صغائرها وذرائلها؛ وتقديس العلم الذي عبّر عنه بالرأس وهو كل ما يدخل في إطار التفكير المنطقي العقلي الذي يجنب المواطن الجزائري بشكل خاص، وأي إنسان بشكل عام من إحداث القلاقل والمشاكل لمجرد نزوة عابرة في موعد كروي لا يسمن من جوع فكري أو علمي أو حضاري أو ثقافي، يقول دواق:

فَإِنْ أَرَدْنَا صُعُودًا إِنْ وَاجِبْنَا إِعَادَةَ الرَّأْيِ فِي التَّقْدِيرِ وَالرَّتَبِ

فَالرَّأْسُ رَأْسٌ لَهُ فِي الْجِسْمِ وَالرَّجُلُ رَجُلٌ وَتُونَ الرَّأْسِ فِي
مَنْزِلَةِ الْأَنْبِ (41)

وهذا الوضع المتأزم زاد للطين بلة؛ فأدى إلى هجرة الأدمغة الجزائرية؛ حيث استغلتها أمم أخرى، ووفرت لها كل الوسائل والإمكانات اللازمة لأجل الإنتاج الفكري في بيئة البحث العلمي؛ فخسرت الجزائر أبناءها بسبب اهتمامها بمثل هاته الترهات، يقول دواق:

أَمَّا كَفَى مَا جَنِينًا مِنْ عَدَاوَتِنَا لِنُخْبَةٍ لَمْ تَجِدْ فِي الْوَطَنِ مِنْ سَدِّ!
فَهَا جَرَتْ تَبْتِغِي يَوْمًا كَرَامَتَهَا فِي غَيْرِ مَوْطِنِهَا فِي عَيْشَةٍ رَغْدٍ
وَلَمْ تَبَالِ بِهَوْلِ الْبَحْرِ تَعْبُرُهُ وَالْمَوْتُ يَصْطَادُهَا فِي غُمْرَةِ الزَّيْدِ
إِلَى مَتَى وَغَقُولِ الْوَطَنِ تَهْجُرُهُ مُرِيدَةٌ غَيْرُهُ أَمَّا وَلَمْ تَعُدْ
تَلْكُمُ جَزَائِرُنَا ضَحَّتْ بِأَدْمِغَةٍ وَسَخَرَتْ أَرْجُلًا جَهْلًا كَمُعْتَمَدٍ (42)
وَعَلَّقَتْ أَمَلًا فِي فَوْزِهَا عَبَثًا لَعَلَّ فَوْزًا لَهَا يُنْجِيهَا مِنَ النُّكْدِ
أَضْحُوكَ نَحْنُ بَيْنَ النَّاسِ وَالْأَسْفَا عَلَى كَرَامَتِنَا هَانَتْ وَلَمْ تُسَدِّ (43)

ولذلك يحبز الشاعر سليمان دواق الخسارة الكروية؛ لأنها تُعيد الضمير للإنسان والوعي لفكره، ليكتشف خطأه، ويعلم بأنه لاه بالكماليات على حساب الأولويات التي ينبغي أن تكون، وهي الاهتمام بالعقول أو الرجال النبغاء الذين يرفعون راية الوطن عاليا من خلال الإنتاج الفكري والمعرفي والحضاري يقول دواق:

لَعَلَّ خُسْرَانَهَا بِالْأَمْسِ يَنْفَعُنَا يُعِيدُنَا لِسَبِيلِ الْوَعْيِ وَالسَّدِّ
إِنْ كَانَ هَذَا فَمَا أَحْلَى وَمَرْحَبًا بِسُقُوطِ يَدْعُو لِلصَّغْدِ
هَزِيمَتِنَا تَقِيدُنَا وَتُعِيدُ الرَّأْسَ لِلْجَسَدِ (44)
وَرَبِّمَا نَسْتَقِي مِنْ عَثَرَةٍ عِبْرًا

خاتمة:

ظهر مفهوم ظاهرة الالتزام الأدبي في ديوان «سقوط قمم ومهازل أمم»، وكان للظاهرة حضوراً قوياً تمثل في تصوير الشاعر سليمان دواق لمختلف المظاهر الاجتماعية التي عايشها ورآها إن على المستوى المحلي في الإقليم الوطني الجزائري، أو على مستوى العالم العربي والإسلامي الذي يعتبر الشاعر نفسه جزءاً منه يتألم لآلامه، ويستبشر بآلامه، ويستشرف لمستقبله، محاولاً الغوص في عمق إشكالات تلك المظاهر المطروحة، ثم يسرد تداعياتها المختلفة بتفصيل، لتكون نهايات القصائد في مجملها كما لاحظنا في هذه الدراسة- حلاً مقترحة، لتلك الإشكالات المطروحة، كما يتأكد لنا دور الأدباء بشكل عام، والشعراء بشكل خاص في طرح أهم القضايا الاجتماعية، وقدرتهم وتمكنهم على معالجتها في أسلوب شعري جمالي يجمع بين عذوبة الإيقاع والنغم، وبين رسالة الأبيات وأهداف الموضوع.

إحالات الدراسة:

- (1) . ولد سليمان بن عمر دواق في 09 ديسمبر سنة 1944م ببلدة بني يزقن، بولاية غرداية، زاول تعلّمه في مدرسة الحياة، ثم انخرط في معهد الحياة ودرس فيه، حصل على شهادة الدراسات الأدبية العامة من جامعة الجزائر سنة 1968م، وشهادة الليسانس في العلوم الاجتماعية من الجامعة نفسها سنة 1970م، وشهادة الكفاءة الأستاذية والعلوم الاجتماعية من المدرسة العليا للأساتذة في السنة ذاتها. درّس في سنوات السبعينات بثانوية عديدة منها: ثانوية ديدوش مراد بالمنبعة، والثانوية المختلطة بورقلة؛ إلى أن استقر به المقام بمسقط رأسه أستاذاً للتعليم المتوسط بإكمالية الشيخ عبد العزيز الثميني من 1985م إلى تقاعده في 2001م؛ إضافة إلى تدريسه البنات بالمعهد الجابري من 1987م إلى 2007م. له إنتاج أدبي ضخم يجمع بين الدواوين الشعرية منها: أنغام الوفاء (2004م)، نفحات ولفات (2009م)، في دائرة الطيبشور (2010م)، حواؤنا بين ماضيها وحاضرها (2013م)، سقوط قمم ومهازل أمم (2013م).

=

=

- (2) . سورة الشعراء: 224-226.
- (3) . سلامة موسى، الأدب للشعب، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، د.ت.ن، ص:25.
- (4) . بدوي طبانة، التيارات المعاصرة في النقد الأدبي، د.ت.ن، ص:360.
- (5) . حامد حنفي داود، تاريخ الأدب الحديث، تطوره، معالمه الكبرى، مدارس، 1993، ص:133.
- (6) . ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، 1956، ج 12، ص:541، 542.
- (7) . عبد المالك مرتاض، في نظرية النقد، 2007، د.ت.ن، ص:50.
- (8) . محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار العودة، مصر، 2005، ص:456.
- (9) . بدوي طبانة، مرجع سابق، ص:370.
- (10) . حامد حنفي داود، مرجع سابق، ص:140.
- (11) . سليمان بن عمر دواق، ديوان سقوط قمم ومهازل أمم، المطبعة العربية، غرداية، 2013م، ص:15.
- (12) . سليمان بن عمر دواق، مصدر سابق، ص:17.
- (13) . سليمان بن عمر دواق، مصدر سابق، ص:18/19.
- (14) . سليمان بن عمر دواق، مصدر سابق، ص:20.
- (15) . سليمان بن عمر دواق، مصدر سابق، ص:23.
- (16) . سليمان بن عمر دواق، مصدر سابق، ص:24.
- (17) . سليمان بن عمر دواق، مصدر سابق، ص:25.
- (18) . سليمان بن عمر دواق، مصدر سابق، ص:26.
- (19) . سليمان بن عمر دواق، مصدر سابق، ص:37.
- (20) . سليمان بن عمر دواق، مصدر سابق، ص:48.
- (21) . سليمان بن عمر دواق، مصدر سابق، ص:52.
- (22) . سليمان بن عمر دواق، مصدر سابق، ص:54.
- (23) . سليمان بن عمر دواق، مصدر سابق، ص:55.
- (24) . سليمان بن عمر دواق، مصدر سابق، ص:56.
- (25) . سليمان بن عمر دواق، مصدر سابق، ص:57.

=

=

- (26). سليمان بن عمر دواق، مصدر سابق، ص: 62.
 (27). سليمان بن عمر دواق، مصدر سابق، ص: 63.
 (28). سليمان بن عمر دواق، مصدر سابق، ص: 63.
 (29). سليمان بن عمر دواق، مصدر سابق، ص: 69.
 (30). سليمان بن عمر دواق، مصدر سابق، ص: 71.
 (31). سليمان بن عمر دواق، مصدر سابق، ص: 71.
 (32). سليمان بن عمر دواق، مصدر سابق، ص: 76.
 (33). سليمان بن عمر دواق، مصدر سابق، ص: 76.
 (34). سليمان بن عمر دواق، مصدر سابق، ص: 76.
 (35). سليمان بن عمر دواق، مصدر سابق، ص: 76.
 (36). سليمان بن عمر دواق، مصدر سابق، ص: 79.
 (37). سليمان بن عمر دواق، مصدر سابق، ص: 80.
 (38). سليمان بن عمر دواق، مصدر سابق، ص: 91.
 (39). سليمان بن عمر دواق، مصدر سابق، ص: 93.
 (40). سليمان بن عمر دواق، مصدر سابق، ص: 95.
 (41). سليمان بن عمر دواق، مصدر سابق، ص: 95.
 (42). سليمان بن عمر دواق، مصدر سابق، ص: 96.
 (43). سليمان بن عمر دواق، مصدر سابق، ص: 98.
 (44). سليمان بن عمر دواق، مصدر سابق، ص: 103.